مكانة التصوف من الاسلام

للأستاذ السيد أبو الفيض المنوفى
شيخ السادة الفيضية

إن منزلة التصوف من الإسلام منزلة الروح من الجسد والزيد من المخض والمعنى العميق من ظاهر اللفظ وهو عبارة عن العلم بالإسلام مضافاً إليه العمل بواجباته وأركانه ومضافاً إلى ذلك كله إخلاص الوجه لله فى العلم والعمل وفى الخلق الشخصى فى جانب معاملة العبد لله فمن وصل من مجموع المسلمين والمؤمنين إلى مثل هذه الدرجة من فهم الدين كان من عباد الله المخلصين الذين اختصهم الله واستثناهم من مجموع المسلمين والمؤمنين بقوله تعالى : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) واستثناهم الشيطان نفسه فى قوله مخاطباً للحق عز وجل : (إلا عبادك منهم المخلصين) وفى هذا المقام يقول السيد المسيح عليه السلام : (طوبى للذين هم فى النار ولا يحترقون) وفى قول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) الخ الآية ، استثناء للقوم أيضاً من بقية الداعين والعابدين والزاهدين والمخبتين من مجموع المسلمين وفى قول الله عز وجل : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين).

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم نعت القوم المحسنين فى حديث عن جبريل عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو حديث الإحسان الذى سأله فيه جبريل عن الإسلام فقال : (أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة . . . الخ) .

وسأله عن الإيمان فقال : (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . . . الخ . ولما سأله عن الإحسان بالذات قال : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) ، والإحسان كالإيمان وكحقيقة الإسلام مأخوذ عن أحوال النبي صلى الله عليه وسلم مع ربه وتبتله وأنابته إليه ، وفى قول الله عز وجل : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) ، لم يشر فقط إلى اتباع الرسول فى أقواله وأفعاله وإنما أشار إلى أتباعه صلى الله عليه وسلم فى أقواله ثم فى أعماله ثم فى أحواله التى منها الإحسان ، والإحسان الذى يجمع بين التقوى وبين المشاهدة القلبية حال العبادة والتبتل لله بالذات . وهو طريق الرجل الصوفى إلى الله بعد أن أحاط بواجبات الإسلام علماً وطبقها عملا بغية الفوز بتحقيق قوله تعالى :(ومن أسلم وجهه إلى الله وهو مسلم فقد استمسك بالعروة الوثقى) .

والإسلام فى هذه الحالة بما يحتويه من تشريع وعمل يفضى إلى إيمان والايمان يفضى إلى إحسان كحديقة غناء تحوى الأشجار والعبيق والثمار وإذا صح التشبيه كانت كلمة الإسلام وهى كلمة الإخلاص أيضاً سياج تلك الحديقة وكان التشريع المنتج للعمل الصالح والمكون للإيمان الثابت تدريجياً مع اليقين المتين بذور تلك الحديقة ، وكان الإحسان بما يحتويه من تقى وشهود وتبتل وصدق وإخلاص . . . الخ . ثمار تلك الحديقة الإسلامية وجناءها فى عمومها . أو قل وهو الحق إن الإسلام فى مجموعه مثل اللبن الذى يحوى المصل وهو صواغه . ثم يحوى المسمار وهو ما يصنع منه ذلك الكائن المغذى المسمى بالجبن ، ثم هو يحتوى وراء كل ذلك الزبد فإذا تصورت ذلك تمام التصور أدركت معنى الإسلام والإيمان والإحسان . فإذا كان الإسلام فى عمومه هو اللبن وكان العلم بأركانه هو المصل كان الإيمان هو ذلك المسمار مسمار الإسلام أى دعامته المغذية التى تمد بالقوة المحبوبة سائر عملياته ، وكان الإحسان هو الزبدة المطلوبة والخلاصة الصائغة من معانى الإسلام والإيمان والإحسان . وما دام لآى القرآن ظاهر وباطن وحد ومطلع كان للشريعة الإسلامية بالضرورة وهى التى مستمدها الأعظم كتاب الله وسنة رسوله ظاهر وباطن فظاهرها مطلق أحكام الإسلام من عبادات

ومعاملات وغير ذلك وكان باطنها إخلاص العبادة والمعاملة لوجه الله توسلا إلى حبه ومرضاته تعالى . ومذ كانت الشريعة هى التزام العبودية كانت الحقيقة مشاهدة الربوبية وقصدها بالذات بتلك العبادات والمعاملات وهذا اقتضى أن كل شريعة غير مؤيدة بحقيقة العبودية والإخلاص حالة ظاهرية والعلم بها يسمى حين ذاك بعلم الظاهر وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير مقبولة عند الله . ومذ كانت الشريعة تكلف الخلق بحقرق الحق كانت الحقيقة بجانبها هى التسليم لتصاريف الحق أو كما يقول المحققون من أهل التصوف : (الشريعة أن تعبده والطريقة تقصده والحقيقة أن تشهده) ، فالشريعة قيام بما أمر والحقيقة شهود لما قضى وقدر . فالشريعة حقيقة من حيث أنها وجبت بأمر إلهى والحقيقة شريعة من حيث أنها شهود باطنى لتصاريف الحق فى أفعاله ويقين صادق فى الإيمان به ، وفى العمل المؤدى لحبه وعرفانه .

على أن ظاهر الشريعة وباطنها حقيقة واحدة لا إنقصام لتوحدها ولا انقسام فيها اللهم فى عرف أدعياء التصوف بغير علم وعمل وفى حسبان زى علم الباطن وغلاته الذين قال الإمام مالك رضى الله عنه فى أمثالهم : « من تشرع ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن تصوف ولم يتشرع فقد تزندق ومن تشرع ثم تصوف فقد تحقق » . وهل قام علم الباطن إلا على أساس من الشرع الظاهر ياترى ؟ !!!

وبعد عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وجبت العناية من أمته بشريعته الغراء وكانت أحكام الشريعة تتلقى من صدور الرجال لا من الصحف لا فرق فى ذلك بين عباداتها ومعاملاتها وعقائدها وبذا نشأ النظام العلمى فى أحكام الشريعة ونشأت حقيقة التدين كنتيجة للعمل بها ، وكان بالطبع أول ماتوجهت إليه همم العلماء بالفقه والمحدثين وأول من صرفت إليه أفكارهم حتى فهم الناس ممن عدى أولئك ، إن الاشتغال بالعلم الدينى والعمل بمقتضيات أحكامه هو كل غاية الدين ولكن وفطن قوم إلى أن لظاهر الأحكام ولظاهر العمل بها بواطن وحقائق لا يتم الأمر إلا بتذوقها وتشبع الروح بها فلجأوا إلى علم آخر يتناسب مع الكمال فى أمر الدين الإسلامى يلمس البواطن والحقائق وأدى هذا الطموح المتسامى

إلى نواة علم دينى يقوم بجانب العلم الظاهر مقام اللب أو الزبد من المخض كما تقدم وكان ذلك هو علم التصوف وأهله هم الصوفية أو سالكوا طريق الوصول إلى محبة الله تعالى باتهاج مقامات الإيمان كالتوبة والصبر والصدق والتوكل ... الخ . ثم والتحلى بأحوال الإحسان كالرضا بالله والأنس به والحب له ... الخ .

فإن قلت ما فائدة المسلم من أن يكون للشريعة التى جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم من عند الله باطن وظاهر ؟ قلنا لك أن لكل شىء فيما حولك من يمينك ومن شمالك ومما هو فوقك من سموات وتحتك من أرضين لكل شىء من هذه الألوان باطن وظاهر ، والشريعة أفضل وأسمى ما جادت به السماء على الأرض !! فكيف لا يكون لها ظاهر ملحوظ بالأبصار والعقول وباطن مشهود بالأرواح والقلوب . ويكون العلم المختص بظاهر الأحكام فى العبادات والمعاملات هو ظاهر الشريعة والمختص بالبواطن والسرائر والأحوال الناتجة عن ظاهر الأعمال هو باطن الشريعة أو قل علم الحقيقة فإن قلت أيضاً . ما دام العلم بمجموع ما جاءنا به النبى من عند الله موجوداً وما دام العمل بمقتضياته مطبقاً ومرعياً فما الفائدة فى أن يكون للشريعة علم باطن هو التصوف وعلم ظاهر هو الفقه المختص بالأحكام ؟ .

قلنا لك أيضاً أن الله جعل من عباده الخير والصالح والعابد والزاهد وجعل منهم أيضاً صفوة سماهم عباد الرحمن — وعبادى وأولياءى إلى أن قال . . إلا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون — وكل هذا نزل به القرآن وأقرته الشريعة الإسلامية : «وكلا نمد هؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا» ، ورحم الله البوصيرى الذى قال :

وكلهم من رسول الله ملتمس
غرفا من البحر أو رشفا من الديم

السيد أبو الفيض المنوفى